

طبيعة العلاقة بين الفلسفة والدين الإسلامي
د. صبري محمد خليل
قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة الخرطوم

مقدمة:

يهدف المقال إلى إثبات اتفاق الفلسفة مع الدين الإسلامي من خلال إثبات إن الحكمة هي مصطلح مقابل لمصطلح الفلسفة في الفكر الإسلامي، وبالتالي فإن الفلسفة ذات جذور عميقة في هذا الفكر. وأن خصائص التفكير الفلسفي يمكن استنباطها من القرآن والسنة. ثم من خلال بيان الموقف الحقيقي لبعض الإسلاميين من الفلسفة.

الحكمة كمصطلح مقابل للفلسفة في الفكر الإسلامي:

احترز فلاسفة اليونان عن نسبة الحكمة للإنسان واكتفوا بأن يكون محياً للحكمة خوفاً من السقوط في التصور التشبيهي للإله الذي كان سائداً عند اليونانيين - حيث تصوروا آلهتهم قوى لا تنفك كنظم قوانين الطبيعة وتعارض الإرادة الإنسانية وتشبه الإنسان في كثير من الجوانب.

أما في القرآن فإنه استناداً إلى التصور التزيهني لله تعالى الذي يقوم على أن الله تعالى الوجود المطلق الذي لا يحده قيد من الزمن أو مكان ولا يمكن للإنسان أن تصوره بخياله المحدود، واستناداً إلى مفهوم الاستخلاف الذي يقوم على إظهار الإنسان لصفات الله تعالى في الأرض فإنه قد تجاوز موقف هؤلاء الفلاسفة اليونانيين حين جمع بين وصف الله تعالى بالحكمة (والله عزيز حكيم) المائدة:38 ووصف الإنسان بالحكمة (يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) مع إيضاح أن الحكمة الإلهية مطلقة والحكمة الإنسانية محدودة. فمصطلح (حكمة) فيما نرى هو مصطلح القرآن المقابل لمصطلح (فلسفة) في الفكر الغربي.

وللحكمة بهذا التفسير معنى علم ومعنى خاص. أما المعنى العام فهو المقدرة على

إدراك الحلول الصحيحة للمشاكل التي يطرحها واقع الناس المعين، وهذا المعنى يمكن استنباطه من ورود مصطلح الحكمة في القرآن بمعاني ترتبط بالمقدرة على إدراك الحلول الصحيحة كالعقل والعلم والفهم والإصابة في القول. قال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء...).

في تفسير ابن كثير (قال ابن نجيم عن مجاهد يعني بالحكمة الإصابة في القول.. وقال ليث ابن سليم عن مجاهد (يؤتي الحكمة) ليست النبوة ولكن العلم والفقه والقرآن.. قال إبراهيم النخعي الفهم... وقال ابن وهب عن مالك قال زيد ابن اسلم العقل)¹.

وقال تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله) "لقمان: 12". الحكمة التي آتاه الله هي الفقه والعقل والإصابة في القول². كما يمكن استنباطه من ورود المصطلح في القرآن بمعنى حل مشاكل الناس بالقضاء.

قال تعالى: (وداؤد وسليمان إذ يحتكمان في الحرت إذ نفثت فيه غم القوم) في تفسير البيضاوي الحكم هو الحكمة النظرية وفصل الخصومات. أما المعنى الخاص للحكمة (الفلسفة) فهو محاولة وضع الحلول الصحيحة للمشاكل التي يطرحها واقع الناس المعين في الزمان والمكان لكن على مستوى كلي تجريدي (خصائص المشاكل الفلسفية).

وهذه المحاولة تتصف بخصائص معينة (هي ذات المنهج الفلسفي) هي الشك المنهجي: العقلانية، المنطقية، النقدية.
خصائص المعرفة الفلسفية
خصائص المشاكل الفلسفية:

إن لكل نمط معرفة مشكلات يحاول حلها بمنهج خاص. غير أن الخصوصية لا تعني أن هذه المشاكل قائمة بذاتها ومستقلة عن المشاكل التي يطرحها الواقع، بل يعني تناول ذات المشاكل الواقعية لكن على مستوى معين أي منظور إليها من جهة معينة. والمشاكل أو

ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تفسير الآية¹.

الموضوعات الفلسفية هي ذات مشاكل الواقع لكن تم تناوفا على مستوى مجرد كلي.

]. التجريد:

المجرد هو الفكر لأنه مجرد من الزمان والمكان والمادة ونقيضه العيني أي ما يوجد في مكان معين وزمان معين وهو الشئ المادي الحسوس.

والفلسفة تخصص في الدراسات الفكرية المجردة لذا فإن موضوعات الفلسفة هي النظريات والمفاهيم والتصورات والأفكار... وكل موضوع عيني (أي موجود في زمان و مكان معين) فهو علم وليس فلسفة. غير أن هذا لا يعني أن الفلسفة منفصلة عن الواقع إذ أن المعرفة قائمة على الانتقال من المعين (المشكلة) إلى المجرد (الحل) إلى العيني مرة أخرى من أجل تغييره (بالعمل).

فالفلسفة بمثابة مقدمات مجردة لا تؤخذ في عزلة عن نتائجها العينية ووظيفتها إيضاح الأصول الفكرية المجردة لمواقف عينية. وبالتالي فإن كل دعوة للالتزام أفكار مجردة وراءها دعوة لموقف معين من الواقع المعين.

2. الكلية:

الفلسفة هي مفهوم كلي للوجود، فهي تبحث في علاقة الإنسان بالإله والآخرين من طبيعة ومجتمع الخ... لذا فإن مواضيع الفلسفة هي العلاقات. وبالتالي فإن أي موضوع جزئي (أي يتناول نوع معين من أنواع الوجود فهو علم وليس فلسفة).

غير أن هذا لا يعني أن الفلسفة بما هي كلمة تلغي العلم بما هو جزئي ذلك أن الكل لا يلغي الجزء بل يحده فيكملة ويعنيه.

خصائص المنهج الفلسفي:

للفلسفة منهج خاص نحل المشاكل الفلسفية يتصف بالثبات المنهجي والعقلانية والمنطقية والتجريدية.

الشك المنهجي (النسي):

يقوم المنهج الفلسفي على الشك المنهجي أو النسي وهو شك مؤقت ووسيلة لا غاية في ذاته إذ غايته الوصول إلى اليقين أي أن مضمونه المنهجي عدم التسليم بصحة حل معين للمشكلة إلا بعد التحقق من كونه صحيح ويمكن أن نجد نموذجاً لهذا النوع من الشك في القرآن فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لنن لم يهدني ربي لآكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين).

والشك المنهجي يختلف عن كل من الشك المذهبي والزعة القطعية.. فالشك المذهبي أو المطلق دائم وغاية في ذاته أي أن مضمونه المنهجي قائم على أنه لا تتوافر للإنسان إمكانية حل أي مشكلة. وقد عبر القرآن عن هذا الشك المرفوض بالريب (أي قلوبهم مرض أم ارتابوا).

أما الزعة القطعية فتقوم على التسليم بصحة حل معين دون التحقق من كونه صادق أم كاذب وقد وجه القرآن الذم لهذه الزعة في عدة مواضع كما في قوله تعالى: (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آياتنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون).

العقلانية:

ويتصف المنهج الفلسفي بالعقلانية. أي استخدام ملكة الإدراك (الخرد) كوسيلة للمعرفة إذ الفلسفة هي محاولة إدراك الحلول الصحيحة للمشاكل الكلية الخردة. والقرآن يدعو إلى العقلانية التي لا تتناقض مع الدين والعلم (أي التي لا يتناقض فيها استخدام الإدراك أو العقل مع استخدام الوحي والحواس كوسائل للمعرفة لذا فقد ورد في القرآن مادة عقل ومادة أولي الألباب ستة عشر مرة).

المنطقية:

ويتصل بالخصوصية السابقة أن المنهج الفلسفي يستند إلى المنطق بما هو القوانين

(السنن الإلهية) التي تضبط حركة الفكر الإنساني ذلك أن الفلسفة لكي تصل إلى حلول صحيحة لمشاكلها يجب أن يستند إلى القوانين أو السنن الإلهية التي تضبط حركة تحول الطبيعة وتطور الإنسان وحركة الفكر. وقد أشار القرآن إلى عدد من القوانين المنطق حيث نجد على سبيل المثال الإشارة إلى قانون عدم التناقض (أما أو لا) كما في قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً (الإسراء: 82)).

التقديّة:

والمنهج الفلسفي قائم على الموقف الرفض لكل من القبول المطلق والرفض المطلق والذي يرى أن كل الآراء (بما هي اجتهادات إنسانية) تتضمن قدرًا من الصواب والخطأ وبالتالي تأخذ ما تراه صواباً وترفض ما تراه خطأ. وقد أشارت النصوص إلى هذا الموقف النقدي قال تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه).

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: (لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت بل وطنوا أنفسكم إن أحسن أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم).

المواقف المختلفة من الفلسفة في الفكر الإسلامي

مذهب الرفض المطلق:

هذا المذهب يرى أن هناك تعارض بين الدين الإسلامي والفلسفة بصورة عامة والفلسفة اليونانية بصورة خاصة إذ أن الفلسفة المعروفة حينها هي الفلسفة اليونانية وأن هذا التعارض مطلق وبالتالي فإن الموقف الصحيح من الفلسفة هو الرفض المطلق ومن ثمّلي هذا المذهب بعض متأخري الجنبلة كابن الصلاح في كتابه (الفتاوى).

٣٩

تقديم:

آداب. العدد 22 ديسمبر 2004.
حقوق الطبع محفوظة لكلية
الأداب جامعة الخرطوم

هذا المذهب كما ذكرنا مبني على أساس أن هناك تعارض بين الدين والفلسفة وهو غير صحيح للآتي:

- أنه قائم على فرضية أن الفلسفة تأخذ موقفاً موحداً من جميع القضايا وأن هذا الموقف مناقض لموقف الدين منهما بينما واقع الأمر أن هناك تعدد في المواقف تجاه هذه القضايا بمقدار تعدد المذاهب الفلسفية وتعدد الفلاسفة وهذا الأمر قرره أين تيمية في معرض رده على من قال أن الفلاسفة جميعاً قالوا بقدوم العالم أما نفي الفلسفة مطلقاً أو إثباتها فلا يمكن إذ ليس للفلاسفة مذهب معين ينصرونه ولا قول يتفقون عليه في الإلهيات والمعاد والنبوات ولا الطبيعيات والرياضيات¹.
- كما أن هذا الموقف ظهر في فترة تحولت فيه الفلسفة (الحكمة) من نشاط عقلي كلي مجرد إلى بحث في الغيبات فاختلطت بمعارف محرمة كالسحر والكهانة والشعوذة ويدل على هذا ربط متأخري الفقهاء بين الفلسفة وهذه العلوم الخارقة. يقول النووي (قد ذكرنا من أقسام العلم الشرعي، ومن العلوم الخارقة عنه ما هو محرم أو مكروه أو مباح فأحرم كتعلم السحر فإنه حرام على المذهب الصحيح وبه قطع الجمهور وكالفلسفة والشعوذة "الشعوذة" والتنجيم وعلوم الطبائين)². وواضح أن هذه المعارف تمثل أمط التفكير الأسطوري والخرافي التي تتناقض مع نمط التفكير الفلسفي والعلمي فضلاً عن الدين.
- كما أن هذا المذهب يتفق مع مذهب بعض المستشرقين إذ اتخذ هؤلاء المستشرقين موقف أنصار هذا المذهب كدليل على إنكار أصالة الفلسفة الإسلامية.

المذهب النقدي:

وهذا المذهب قائم على أنه ليس هناك تعارض مطلق بين الفلسفة بصورة عامة

¹ / ابن تيمية منهاج السنة ص 253.

² / النووي المجموع شرح المذهب ج 1 ص 27

والفلسفة اليونانية بصورة خاصة والدين الإسلامي بل هناك أوجه اتفاق وأوجه اختلاف وفي حالة الاختلاف يكون الرفض وفي حالة الاتفاق يكون الأخذ والقبول.

ابن تيمية:

فابن تيمية مثلاً لا يأخذ موقف موحد من الفلسفة المقصود هنا الفلسفة اليونانية سواء بالرفض والقبول بل يقسمها إلى ثلاثة أقسام:

1. الإلهيات (الميتافيزيقا) وهو يرفضه وأغلب رفضه ينصب على هذا القسم منها.
2. الطبيعيات: ويرى جواز الأخذ به مع عدم ربطه بالإلهيات "الميتافيزيقا" اليونانية ويعتبره غالبه كلام جيد وهو كلام كثير واسع ولهم عقول عرفوا بها وهم يقصدون به الحق لا يظهر عليهم فيه العناد ولكنهم جهال بالعلم الإلهي.
3. الرياضيات: ويرى وجوب الأخذ بها ومعرفة ضرورية لعلوم الفرائض وقسمة التركة والميراث وغيرها¹ وبناءً على ذلك لا ينفي صفة الإسلامية عن الإنتاج الفكري لهؤلاء الفلاسفة بل يقرر أنهم كان في كل من هؤلاء من الإلحاد التحريف بحسب ما خالف به الكتاب والسنة ولهم من الصواب والحكمة ما وافقوا فيه ذلك²

الغزالي:

كما أن الغزالي يأخذ نفس الموقف فيقسم الفلسفة اليونانية إلى ثلاثة أقسام حسب تعارضها أو توافقها مع أصول الدين:

1. قسم ستعارض مع هذه الأصول لفظاً ومعناً وحصره في ثلاث قضايا هي (قول الفلاسفة اليونانيين بقدوم العالم وإنكار البعث الجسدي وإنكار علم الله تعالى بالجزئيات).

¹ / ابن تيمية، الرد على المنطوقين، طبعة بيروت دار المعرفة.

² / ابن تيمية، منهاج السنة، ص252.

2. قسم يتعارض مع هذه الأصول لفظاً ويتوافق معها معناً وحصره في سبعة عشرة قضية.

3. قسم يوافق هذه الأصول لفظاً ومعناً¹.

ثم يحدد الموقف من هذه الأقسام (قسم يجب التكفير فيه وقسم يجب التبذير به وقسم لا يجب إنكاره أصلاً)².

ابن حزم الظاهري:

أما ابن حزم الظاهري من أئمة مذهب أهل الظاهر (أحد مذاهب أهل السنة فيرى أن الفلسفة تتفق مع الدين في الغاية "إصلاح النفس" لذا يجب الأخذ بها "في حالة احتفاظ الفلسفة بهذه الغاية" إن الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد وحسن سياستها للمزول والرعية وهذه نفسه لا غيره هو غرض الشريعة، وهذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة)³.

¹ - الغرالي، كلمات الفلاسفة طبع بيروت، ص 9-13.

² / الغرالي المنقذ من الضلال طبع دمشق، ط 1، ص 85-88.

³ / ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج 1، 94، ط القاهرة، 1317هـ.

- 2 ابن تيمية، منهاج السنة.
- 3 -----، الرد على المنطقيين، بيروت، دار المعرفة.
- 4 النواوي، المجموع شرح المهذب ج1.
- 5 الغزالي، مفايت الفلاسفة.
- 6 الغزالي، المنقذ من الضلال.
- 7 ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج1، القاهرة 1317م.